عبد العزيز بنعبد الله

الفلسفة والاخلاق عند ابن الخطيب

انتشرت في القرن الماضي بالديار الغربية نظرية كان لها تأثير في توجيه الدراسات الادبية وتكييف مناهجها وصبغ البحث عن شاعر او اديب او عالم بصبغة العصر الذي عاش فيه ذلك الشاعر او ذلك الاديب او ذلك العالم حتى صار من لوازم الدقة ومقتضيات الاستقراء رسم صور واضحة عن شتى مظاهر العصر ومختلف مجاليه، ولعل من ابرز الفلاسفة الذين طبقوا هذه النظرية في اوربا رجلا كان له اتصال وثيق بالاساليب العلمية التجريبية لاسهامه في مختبراتها اسهاما مباشرا، وهذا الرجل هو تين Taine الذي سيطرت عليه فكرة طبيعة تأثر الاديب بالجو الذي عاش فيه بيئة وجنسية وعصرا حتى اطلق لفكره العنان خلال بحوثه الادبية والفلسفية في استقصاء الظروف الطبيعية والسياسية، وكذلك الملابسات الاجتماعية والعلمية التي احاطت بالاديب او الفيلسوف الذي يترجم له، فجاءت دراساته عبارة عن دراسة امم وعصور لا دراسة افراد .

وقد يكون في هذه النظرية حظ وافر من الاصابة، ولكن تطبيقها على هذا النحو من التطرف قد يعكس النتيجة ويشغل الفكر بمظاهر لا صلة لها بحياة ولا بنفسية الشاعر او الاديب، على اننا نجد في كل عصر من العصور اشتاتا من الناس تأخروا عن عصرهم او تقدموه، اننا نجد في القرن العشرين رجالا يعيشون في اطار ضيق اجدر بالقرون الوسطى كما نعثر في ثنايا الاجيال الغابرة على افراد غلب على افكارهم وشعورهم طابع اشبه بالطابع الحديث .

اذا كان الادب ينبوعة النفس وكانت النفس تستمد جزئيا من جبلتها الاولى التي فيها مقادير مشتركة بين البشرية، فان نتاج الاديب يكون بطبيعة الحال موسما بميزات انسانية مشاعة بين جميع العصور والافراد، كما يكون

مطبوعا بخصائص ترجع الى طبيعة هذه النفسية التى قد يؤثر فيها المحيط الخارجي نوعا من التاثير ولعل هذا التاثير يقوى ويضعف تبعا لقرب ذلك المحيط وبعده فالجو العائلى يعكس فى نفس الصبى خواطر قد تلازمه الى الابد وتنتقش فى مرآته الباطنيــة انتقاشا لازما لا تمحوه الطوارىء مهما تكن قوتهــا، فاذا كانــت الام او الاب مشبــعا احدهما او كلاهما بفكرة صوفية او لادينية فان اثر هذه الفكــرة قد يكيف اتجاه الابن فى جميع اطواره الحيوية ومراحله المعاشية .

ومع ذلــك فان للظروف والاحداث الطارئة نوعا من التاثير يجب ان لا نغفله اذا اردنا ان نستكمل ضروب العوامل التــى تتواطأ على خلق الاديب او الفيلسوف .

ولنضــرب لذلــك مثلا برجل عاصــر ابــن الخطيب ما بين منتنى 713 و 745 هـ. وولد كلسان الديــن فى غرناطــة او ما جاورها من ارباض قريبة حيث تسيطر نفــس الطبيعــة ونفس المنــاخ وتؤثر نفس الظروف والعوامل الخارجية وذلك الرجل هو اثير الدين ابو حيان البربرى .

فقد كان الرجلان رغم وحدة المنبت على طرفى نقيض فى امور شتى كما كانــا فرسى رهان فى امور اخرى قد يكون للظــروف المشتركة يد فى تكييفــهــا .

كان كلاهمــا بوتقة للحيوية الفياضة والنشاط العلمى الغامر ودائرة معارف تتكامــل عناصرهــا واميــرا استقــل بالنفوذ فى منحى من المناحى العلمية والفكرية، وقد تعادلــت مؤلفاتهمــا عدا علــى وجه التقريب وتفتقت شاعريتهما فى الغزل والموشحات يجرى دمع ابى حيان عند سماع الاشعار الغزلية كما تترنح اعطاف لسان الدين اذا استشــف نسيبا رقيق الحواشى وتشبيبا سيال الاطراف .

ولكن رغم هذا كله نلحــظ فى نفسية ابى حيان طابعا خاصا لا ندرى هل يرجع لارومته البربرية ام لظروف مخصوصة عجنت طينته ذلك العجن الغريب ؟ فهو بالعكس من لسان الدين فرور متطرف من الفلسفة يحنق على مــن يتعاطــى علوم الاوائــل ويستنكر الخوض فى المسائل الالهية والقضايا الميتافيزيقية، سيء الظن بالناس فخور بالبخل تتركز نظرياته الاخلاقية على مبدأ مجاملة الناس مع التحفيظ والتحــرز من العدو والصديق على حد سواء وشهود دوافع الغــرض فى كل شيء حتى فى ذلك الاندفاع الطبيعى الــذى يشعر به الاخ نحو اخيه والصديق نحو صديقه .

فلعل طبيعة غرناطة الغناء قد اسهمت في تكوين شاعرية الرجلين ووجهتها نحو الحب والنسيب كما اسهمت في انبثاق نزعة الانبساط وروح الدعابة في مزاجيهما، ولكن رحلة ابي حيان الى الشرق فتحت آفاقا جديدة لم تتيسر لمعاصره لسان الدين فاتجه في حياته اتجاها مغايرا لاتجاه ابن الخطيب واندفع يدرس اللغات الشرقية من تركية وفارسية وحبشية ويصنف فيها تصنيف العارف الخبير واصبح شيخ النحاة وامير المحدثين، وقد يكون لاصله البربري فيما لاحظناه من شذوذ وتشدد ومن تطرف في سوء الظن لان العرب الذين وردوا على الاندلس تضاربت مطامحهم زمنا ما، مع مطامح البربر فخلف ذلك التضارب نوعا من الاحتراس المتبادل تمكن من نفس ابي حيان وجعل فيها هذا الخلق الشاذ طبيعة مستصحبة، ولعل تلك الرحلة الى الديار الشرقية كانت هي العامل في كثير من التقلبات النفسية في حياة ابي حيان فقد تمذهب خلالها بمذهب الشافعي بعد ان رفض آراء الظاهرية التي دان بها زمنا وافاد من اتصاله بشمس الدين بن تيمية سلفية صارمة في العقيدة ونفرة من تأولات الفلاسفة .

ذلك انموذج حي يتبين منه مدى تأثير البيئات المتقلبة والظروف الاصلية والطارئة في التكوين الخلقي والفكري، فان نشأة لسان الدين في وسط موسوم بحسن السمت وكمال الوقار ونقاء العقيدة ووفير الصلاح قد طبعت نفسه منذ الطفولة بذلك الطابع الروحي الذي ما فتيء ينمو ويترعرع حتى صار يتجلى بين الآونة والاخرى في شكل نزوع صوفي تطفح به نفس ابن الخطيب عند اشتداد الملمات وكانت عوامل مختلفة تتفاعل لتنمية هذه الروح الجذابة في طبيعة الرجل ولعل الاحداث التي كانت تعكر صفو حياة ابن الخطيب احيانا في ميدان السيف والقلم ومؤامرات القصر التي توالت مشاهدها المؤلمة امام ناظريه والاحابيل التي تصبها له اعداؤه الكثيرون والانقلابات التي فرقت بينه وبين ذويه ردحات من الدهر ـ كل ذلك تواطأ على تجلية هذه النزعة الروحية التي طغت عليها نعومة الحياة ورغد العيش واجتماع الشمل واسكنت نداءها الفطري الخافت أزمنا مديدة ومن خبر آثار الانفعالات النفسية لم يستغرب هذه التحولات الروحية التي تخلق في الرجل الموتور شخصية جديدة في فكرتها ووجهتها جديدة في ذهنيتها وعقليتها، جديدة في كل شيء يمت الى صميم الذاتية وعميق الفردية حتى ينقلب شهود الذات الى انكار والانانية الى ايثار والجحود الى اقرار والانقطاع الى تواصل واستمرار، وقد يكون ذلك الهوى الذي «خاض ابن

الخطيب عماره واجتنى ثماره واقام مناسكه ورمى جماره، قد انقلب ـ بعد الشعور الطارئ، الذى غمر نفسه وكشف لها عن تفاهة هذا الهوى ـ الى حب علوى تغلغل فى قرارة الروح فانار الوجدان وخلص العقل من شوائب الغرض وجواذب المادة، وهكذا ادى الحب الجسمانى بابن الخطيب كما ادى بابن الفارض الى رحاب المحبة الالهية التى هى غاية الارادات الفطرية ومرماها

تعوضت حب الله عن حب غيره ... الفت طريق الحب حتى اذا انتهى
برق تألق موهنا لمعانه ... وبداله من ما اندمل الهوى

كيف لا وقد صاح لسان الدين بعد أن تامل محاسن الجسوم قائلا «ما أكذب رائدها المطرى واخبث زخرفها المغرى واقصر مدة استمتاعها واكثر المساعى تحت قناعها.. أليست الداعيه مرتفعة والباعثة منقطعة وصورة الحسن دائرة واجزاؤهـا المتناظمة متناثرة ؟ أليس الجواب العنصرى عائدا الى اصلـه ؟ أليس الجنس مفارقا لفصله ؟ .. ما ثم الا انفاس تركد وتخبث وعلل تنشأ وتحدث وزخارف حسن تعاهد ثم تنكث وتركيب يطلبه التحليل بديته ويأخذ اثره بعد عينه وأنس يفقد واجتماع كان لم يعقد وفراق ان يكن فكان قد» .

كل هذه عوامل جزئية ومؤثرات منفصلة قد يتأتى لاجتماعها فى عصور اخرى غير عصر ابن الخطيب ويتمخض تفاعلها عن تكييف خاص لنفسية الفرد وتوجيه قاهر نحو المرامى الروحية، فقد تدفع الازمات والحروب طوائف من الناس نحو الحياة الصوفية التى يجدون فى ربعها طمانينة تغمرهم بزلالها المنعش فتعود الارواح بعد خلاصها من جلبة العالم وضوضائه الى سكينتها الفطرية التى تنفتح فى بحبوحتها آفاقا علوية خلابة وقد تستتب هذه النجوة العابرة ويتطاول امرها فتنتقل من حالها الخاطف الى مرحلة قارة لا تلبث ان تصير مقاما من المقامات الصوفية المرموقة. فابن الخطيب قد اعتراه السأم من ضجة السياسة وضوضائها، فعمد الى هدوء العزلة ينهل من رقراقها فما كان منه الا ان استساغ طعمها واستمرأ لذاتها فانقلب الشوق الى ذوق ...

على ان هذه الروح قد سادت فى عصر ابن الخطيب اوساطا كثيرة تملكها الملل من تقلبات السياسة وغوائل الحروب بين الولايات الاسلامية التى تصطدم تارة بعضها مع بعض وطورا مع كتائب المسيح، فاذا كان لكل عصر روح تسوده، فان عصر لسان الدين قد سادته روح السآمة والملل

من التضارب على المادة وتهالك الافراد والجماعات على المتاع الزائل والاعراض العابرة حتى ود الكثيرون من اهل هذه الفترات المضطربة لو اتيح لهم القبوع والانطواء والتبتل والانزواء فرارا من الفتن المتوالية التي احاقت بهم والنكبات التي تعقبت المسلمين شر متعقب، ولا شك ان النفس تصير في هذه الازمات سلسة القياد للنزوع الفطرى السليم الذى يوجهها اين شاء وكيف شاء .

ولعل تلك الحركة الصوفية التي تجلت في مناظرات جدلية حول الطرقية والمشيخة والارادة كانت وليدة هذه الروح (4) .

ما هي علاقة الفلسفة بالاخلاق في نظر ابن الخطيب ؟ هل الاخلاق جزء من الفلسفة ام هي علم مستقل يستوثق رباطه بالشرع اكثر من العقل ؟ لنا ان ندعي ان نظرية ابن الخطيب اقرب الى الحل الثاني منها الى الحل الاول بدعوى ان الرجل حشر في الروضة ما يسميه «بعلم التخلق ومكارم الاخلاق وطرائق الصوفية» في سلك العلوم الشرعية

ولكن اذا كان ابن الخطيب يعتبر الاخلاق حقا من الشرعيات فما باله يركز هذا العلم على قواعد ومقررات فلسفية ؟ انه يتحدث في سياق تعاريفه الخلقية عن العقل ولكن ما هو العقل ؟ اننا لا نعرفه ولا هو كذلك وكلنا في احتياج للرجوع الى الفلسفة نستشف من بحوثها حقيقة هذه اللطيفة، وما قلناه في العقل نقوله في النفس، وقواها وفي الروح والقلب .

والحواس الخمس ؟ ألم يشر اليها ابن الخطيب في القسم الخلقي من كتابه الروضة دون ان يعرفها ويبين ماهيتها وخصائصها ؟ والحب الذى يعتبره اساسا للاخلاق ؟ أليست ماهيته من الحقائق الفلسفية التي طالما حاول علماء النفس استكناهها ؟

الحقيقة ان ابن الخطيب وان كان يدمج الاخلاق فعليا في الشرعيات ـ الا انه يضطر فيرجع الى الفلسفة يستفسرها عن ماهية بعض القوى وبعض آثار هذه القوى، وهذا كاف في نظرنا لان نقول بان ابن الخطيب لم يخرج عن سنن جمهور الفلاسفة الذين يرون ان الدراسات الاخلاقية ـ كعلم له اصوله وقواعده ـ تعتبر جزءا لا يتجزأ من الفلسفة .

4) نجد اثرا لهذه الحركة فيما كتبه ابن خلدون جوابا عن سؤال ورد على فاس من عدوة الاندلس وذلك في كتابه المخطوط الموجود بالخزانة الزيدانية بمكناس والمسمى «بشفاء السائل من جملة المسائل» وقد اشار ابن عباد في رسائله والشيخ زروق في قواعده لهذه الضجة التي قامت في القرن الثامن حول الطرقية والمشيخة

بل انا نذهب اكثر من هذا فنؤكد انه اذا ما اعتبرنا ان ابن الخطيب كثيرا ما يمزج في الروضة بين مختلف العناصر الفلسفية والصوفية والخلقية دون حد فاصل ولا ضابط مميز - امكننا ان نقول بأن الفلسفة والتصوف والاخلاق كانت في نظر ابن الخطيب متقاربة رغم اتصال بعضها - كالتصوف والاخلاق - بالشريعة من جوانب مخصوصة، ولعل ابن الخطيب لم يكن مذهبه يعدو المذهب الكلاسيكي، وانما حمله على عدم التصريح باندراج الاخلاق في علم الفلسفة تفاديه تهييج شعور الشعب الاندلسي الذي يغض علماء الدين الفلسفة اليه بما رسموه من صور قاتمة عن الحاد الفلاسفة وزندقتهم، وهل يعني ابن الخطيب ان يشرح للناس ان الاخلاق جزء من الفلسفة او ان الفلسفة جزء من الاخلاق ما دام همه مصروفا لشيء واحد وواجبه العلمي محصورا في نطاق محدود وهو غرس الفضيلة في النفوس ؟ لشد ما برهن ابن الخطيب على انه رجل العمل والتطبيق رجل النظر والشكليات .

وما يدريك لعل هذا المزج الذي اعتدناه فلم نر فيه دليل وحدة الماهية - ناتج عن كون ابن الخطيب يحشر الاخلاق والفلسفة والتصوف في فصيلة واحدة رغم ما قد يكون فيها من عناصر متنافرة .

وليس ذلك ببدع لان لفظتي - الاخلاق والفلسفة - تكادان تكونان مترادفتين في الاصطلاحات الجارية على ألسنة العلماء المحدثين، فقد أكد اندري بريد (A - Bridoux) في مقدمة كتابه الاخلاق (Monale-Hachelte 1945) بعد ما لاحظ هذا الترادف قائلا «أليست الفلسفة في نظر كل واحد من الناس هي تقدير الخيرات والشرور حق قدرها ؟ أليس موضوع هذا التقدير هو تنظيم رغائبنا ومخاوفنا وحسراتنا وتعزيز قوى النفس والتزام سيرة خليقة بالرجل في ثنايا جميع المحن والنكبات ؟

اما كون ابن الخطيب يعتبر الاخلاق علما فهذا مما لا شك فيه، لانه يعبر عنها صراحة «بعلم التخلق» بل انه يذهب ابعد من ذلك فيحاول ان يثبت لهذا العلم - بتطبيقاته العلمية - صلته الطبيعية بعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم الجمال، بل بالفنون نفسها، والا فما باله يدرج في سلك نظرياته الاخلاقية فنون الشعر والموسيقى والغناء محاولا تحليل دقائقها النفسانية ؟ الحقيقة ان ابن الخطيب ادرك كغيره من الفلاسفة وفي مقدمتهم - باكون وديكارت - ان العلوم توجهنا في افعالنا واحوالنا بما تكشفه لنا من اسرار الحياة، ومن البديهي ان معرفة الوظائف النفسانية ضرورية لكل

عمل بشرى لاننا اذا لم نتعرف ماهية هذه الوظائف التى هى من اهم ضوابط افعالنا وقعنا فى غمرة من اخطر الغمرات .

وقد نجد هذه الصلة عند ابن الخطيب فى مثل وثاقتها عند ابن خلدون الذى درس الاخلاق على ضوء الاجتماع وتطورات المجتمع، فراى لحياة البداوة الاولى خلقا يخصها، ولحياة الحضارة تكيفا نفسانيا يناسبها، ولعل ابن خلدون فى هذا الامر اقرب الى سان سيمون
الذى اسس برنامجه الخلقى على مبدأ تطور المجتمعات من الحالة العسكرية الى الحالة العلمية والصناعية .

وتسير ابعد من كل هذا فنثبت ان لسان الدين يرى ـ ككثير من علماء الاخلاق المسلمين ان لكل علم آدابه اى هيئات نفسية تقتضى دراسة هذا العلم التكيف بها، ومعنى هذا انه لا يوجد للاخلاق علمها فحسب كما يقول دور خايم (Durkheim) بل للعلوم كذلك اخلاقها كما يقول سبنسر (Spencer) اما يتطلب العلم الاخلاص والاستقامة والصبر والدقة والاحاطة والكمال وكلها مثل سامية وفضائل خلقية ؟ وذلك المجهود الذى يبذله الانسان من اجل احراز درجة الكمال فى العلم ؟ الا ينطوى هو ايضا على معنى خلقى رفيع ؟

ولم يغفل ابن الخطيب حقيقة اخرى وهى ان للاخلاق جانبين جانب فنى وجانب علمى، فالجانب العلمى يتجلى فى تحرير القواعد وتقرير الاحوال بينما يتركز الجانب الفنى على جودة تطبيق هذه القواعد والاحوال من اجل رفع المستوى الخلقى وتحسين الاحوال النفسانية عند الفرد والمجتمع

ونحن اذا ارتفعنا من التفصيل الى الاجمال ومن الخصوص الى العموم والجزئى الى الكلى ـ علمنا ان علاقة العلم بالاخلاق لا تعدو ـ فى نظر ابن الخطيب ـ علاقة العلم بالعمل، ولعل هذا هو معنى ما اشار اليه ديكارت عند ما اكد (3e partie-Discours de la Meth) انه يكفى ان نقدر الاشياء حق قدرها لتحسن اعمالنا وتتهذب افعالنا وعند ما قال (Préface de Principes) ان الاخلاق لا يمكن ادراكها الا بعد الكشف عن جميع اجزاء العلم وانه ينبغى اعتبار علم الاخلاق كاكليل لغيره من العلوم (1)

ولكن ما هو مصدر هذه المعرفة البسيطة التى يجعلها ابن الخطيب دعامة للاخلاق ؟ هل هو العقل ام تلك الفطرة الربانية التى جبل عليها الانسان والتى تنبثق من قرارة طبيعته فتحفظه، من الهفوات التى قد تدفعه الى ارتكابها مداركه العقلية ؟

BRIDOUX P. 4 (1

الغريب هو ان ابن الخطيب الذى يعتبر المعرفة اساس الفضيلة الخلقية يرى ان الفطرة هى الينبوع الفياض بحجة «ان العقل لا يهدى الى الافعال المنجية كما لا يهدى الى الاودية» المخلصة من الامراض وان الفطرة السليمة قد تغنى عن الصنائع والعلوم.

ولكن هذا هو نفس ما يراه الفيلسوف الفرنسى روسو (Rousseau) الذى يقيم حاجزا بين العلم والاخلاق غير ان ما يسميه ابن الخطيب بالفطرة السليمة يسميه روسو - ويعبر عنه فى مواضع كثيرة على الاقل - بالضمير ولعله اختلاف فى التعبير فقط لان الضمير لا يمثل عند روسو سوى غريزة الاهية .

وهذا هو ما يرتئيه كذلك الفيلسوف كانط (Kant) الذى تأثر بروسو واتسق هذا التأثر العلمي بتأثره الفطرى بامه التى كانت قليلة المعرفة ولكن صارمة ملحة فى شعورها الخلقى

فهل معنى هذا ان ابن الخطيب كان يعتنق فى آن واحد مذهبين متناقضين تتشيع لكل واحد منهما مدرسة خاصة ؟ لاشك انه ليس هنالك تناقض لان نظريات لسان الدين متماسكة لا تجد فى آخرها ما يتنافى مع اولها ولكن لعل ذلك العقل الذى يشك ابن الخطيب فى قدرته على هداية المرء وتخليصه من براثن المادة وعلاج نفسه من ادوائها المستعصية هو ما يسميه «كانط» نفسه بالعقل النظرى، اما العقل بمعنى التعقل والتميز اى الادراك البسيط للنسب القائمة بين الاشياء فهو شىء ضرورى الوجود وفقدان الانسان له معناه تجرده عن انسانيته .

فهذا العقل يتناسق مع الفطرة فى عملها الطبيعى ولا ينافيها لانه متمم لها بل اساس ودعامة .

وكانط نفسه يترك فى الحاجز الذى اقامه بين العلم والاخلاق منافذ تتخللها عناصر مختلفة وتتسرب فى ثناياها من الطرفين، فاذا كان «كانط» يربط العلم بالعقل النظرى والاخلاق بالعقل العملى والفلسفة التطبيقية فانه لا يمارى فى وجود لحمة بين العقلين كما لا يمارى طبعا فى وجود صلة ما بين العلم والاخلاق .

وهنالك نوع من المعرفة يعتبره ابن الخطيب لزيما للكمال ويجمعه مع هذا الكمال فى اعلى درج سلم السمو الانسانى وهذا النوع هو معرفة «العارف» الذى يدرك جوهر نفسه وكيف تصير عقلا بالفعل ويتخلص من كدورات الطبيعة ويتجرد عن جميع العلائق القاطعة عن السبب الاول ويكمل

جوهرها كما تحب فيتسم معراجها الاول «ويتم ويخلص الفطرة الناقصة بعلم اعلى من العلوم المكتسبة ويعلم النفس وعللها ولا يترك شيئا من الصنائع العلمية والعملية التي تعطى تدبير الانسان الا نظر فيه وحصله واتصل به ثم حمل من المشقات التي تحصل اكتساب الصنائع المذكورة ويبحث عن حقائق الموجودات حتى يقف على ماهيتها ويفكر في مبدع الخلق وينظر في الذي يجب له ويجوز ويستحيل ويطلب القرب منه والوصول اليه بالعلم لا بالتجوهر» هنالك «يستقيم ويبلغ كمال الانسانية»

فهذا النوع من المعرفة يعتبر هو والكمال فرسى رهان والطريق التي تؤدي ليهما واحدة .

ونحن نستشف من هذا الاتجاه في مذهب ابن الخطيب طابعا افلاطونيا لان الفيلسوف الالهي افلاطون يرى ان الرياضة التي تمارسها النفس من اجل الوصول الى الكمال هي في نفس الوقت مرتقى يؤدي الى الحق والى الخير لان استكناه الحقيقة من خصائص النفس الطاهرة .

وقد نجد في فلسفة ديكارت Descartes تناسبا بين اخلاق كاملة وعلم مكتمل ولكن نوع العلم يختلف عند الجانبين فبينما نجد ابن الخطيب يغلب عليه الطابع الالهي اذ بنا نرى ديكارت يقصد بالعلم عموم المعرفة .

وليست هذه النظرية مقصورة على ديكارت، فان فلاسفة القرن الثامن عشر ميلادي اجهدوا انفسهم في ابراز الصلة الضرورية بين تفتق العقل واكتمال الحاسة الخلقية (1) .

وقد وجد ابن الخطيب في بعض الفلاسفة الاوربيين مشايعين له في حصر التلازم العلمي والخلقي في معرفة مخصوصة مجردة عن الصبغة المادية الصرفة ومن هؤلاء الفلاسفة الاوربيين مشايعين له في حصر التلازم العلمي والخلقي في معرفة مخصوصة مجردة عن الصبغة المادية الصرفة ومن هؤلاء الفلاسفة بروكسن Pregson الذي خلف لنا صفحة رائعة في رسالة التشكر عن جائزة نوبل فقد اكد ان اهل عصره يعتقدون بأن الاختراعات الالية تكفي ــ لمجرد تراكم «اثارها المادية ــ لرفع المستوى الخلقي واسعاد البشرية، ولكن التجربة تدل على ان تطور الآلات الصناعية لا يتمخض عن الفضيلة ولا عن السعادة بل تبرهن على ان توافر الذرائع المادية في قبضة الانسانية من شأنه ان يسفر عن اخطار اذا لم يرفق بمجهود روحي يناسبه(2)

Bridoux P. 11 (1
Bridoux P. 12 (2

وليس تلازم المعرفة والكمال بالشيء البدع الغريب، لان حقيقة الانسان التي يهدف العارف الى استكناهها ليعرف ربه تندرج في كماله، فالانسان كما يقول موريس بلونديل لا يكون مطابقا لحقيقته ولا يسبر غور نفسه الا اذا اجتهد في انتجاع الكمال

مصادر ابن الخطيب

لا يمكننا ان ندرس نظريات ابن الخطيب في الاخلاق دون ان نربطها ربطا محكما بنظرياته في التصوف لما بين هذين الشعبتين الفلسفيتين من اتصال وثيق في مؤلفات ابن الخطيب لاسيما منها «روضة التعريف بالحب الشريف» حيث حشر «علم التخلق وطريق الصوفية» في حلقة واحدة لدى ترتيبه للعلوم وما بالك برجل يستمد وجهته الخلقية ويدعم نظرياته في السلوك الفردي والاجتماعي بأقوال الجنيد والحسن البصري والشافعي وعبد الله بن سهل وابراهيم بن ادهم وابي نصر السراج ورؤيم والحلاج وابن العريف وابن الفارض مستلهما منهم تقسيماته وتراتيبه للاحوال والمقامات الروحية التي ليست سوى باطن للمجالي الخلقية الظاهرة ؟ على ان ابن الخطيب لم يكتف بالسير على غرار الصوفية الاقدمين بل استمد في نفس الوقت من الفلاسفة الاوائل وزملائهم الاسلاميين وبالاخص الشيخ الرئيس ابن سينا الذي بلغ اعجابه به حدا بعيدا - ومن الادباء كأبي الفرج بن خلصون وابي الفرج بن الطيب البغدادي، ومن الشعراء كالمتنبي في حكمياته وابي العلاء وابي العتاهية في زهدياتهما وقد نجد بعض آثار ذلك ظاهرا بين ثنايا كتبه .

ولكن ليس معنى هذا ان مصادر ابن الخطيب وينابيع استلهامه محصورة فيما ذكر فانه استمد لباب اخلاقياته من آداب القرآن والسنة التي بعث صاحبها عليه الصلاة والسلام ليتمم مكارم الاخلاق كما افادته تفاريع الفقه الذي تأثر - تأثر الغزالي - بتقاسيم احكامه.

وابن الخطيب قد قرأ واستفاد من كتب لم يشر اليها صراحة فهو ينقل في سياق بحثه ويدمج في تضاعيف كلامه امثالا وحكما ومقالات ينسبها لبعضهم مكتفيا بهذا العزو الغامض، ولعله اختصر رغبة في الايجاز او انبهمت عليه - لكثرة ما قرأ - بعض المصادر فاضطره ضيق الوقت لعدم التبسط في مراجعتها واثباتها ولا شك عندي ان كتب الاحياء وميزان العمل

وكتاب الاربعين ومنهاج العابدين (1) والتبر المسبوك فى نصيحة الملوك للغزالى كانت من بين هذه المصادر كما انه لا يبعد ان يكون من جملتها ايضا ادب الدنيا والدين للماوردى وكليلة ودمنة (2) والادب الكبير والادب الصغير لابن المقفع وتهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق لابن مسكويه والشفا للقاضى عياض ورسائل اخوان الصفا وكذلك الرعاية للمحاسبى والرسالة للقشيرى والقوت لابى طالب المكى .

ولا مناص لمن يدرس نظرية لسان الدين فى الاخلاق ان يطلع على جل ما وصلنا من كتبه وان كان سيعثر على كثير من التكرار والترديد فى ثنايا هذه الكتب، ولعل اهم مصدر ينبغى الاعتماد عليه بعد «الروضة» هو شعر ابن الخطيب فقد كان الكثير من هذا الشعر مرآة انعكست عليها خلجات نفس الرجل وانظاره الفلسفية والصوفية فى الكون والوجود والحب والجمال ومع ذلك فان ابن الخطيب لا يخلو من حكم وامثال يتالف من مجموعها جزء من هيكل الفلسفة الخلقية الخطيبية، زد على ذلك ان لتجارب ابن الخطيب الشخصية ـ ولتجارب بعض شيوخه كابن هذيل وابى القاسم اللوشى وابن مرزوق وكذلك بعض تلاميذه كابن خلدون ـ يدا فى بناء هذا الهيكل المتناسق الاجزاء .

اسلوب ابن الخطيب

لا ينتظر ابن الخطيب سنوح الفرصة الجدية لادماج الحكم السامية فى سلك كلامه فهو يرسل الامثال السيارة ويبث فى القارىء ارشادات ونصائح بمناسبة وبغير مناسبة ويستخلص من كل حادث تاريخى حكمة ومن كل واقعة وجهة ومن كل ترجمة صالحة انموذجا للفضيلة ومثالا للاستقامة والكمال وما بالك برجل يتخذ قصائد المدح والذم والفخر مطايا للاعراب عن آرائه فى ادق المسائل واهم القضايا ؟

وله طرائق فى الكتابة ومناهج فى البحث تختلف باختلاف المواضيع فهو اذا تحدث عن الحب والجمال اسمعك من قيثارته ما يتملك ومن نايه ما يشجيك وغمرك بفيض منعش من فنه البديع يسحرك بسجعاته المتجاوبة

1) نقل الزبيدى عن المسامرة لابن عربى انه ليس له وانما هو لابى الحسن على بن خليل السبتى

2) والذى يدل على ان ابن الخطيب عرف هذا الكتاب انه جعله مضرب المثل فى قوله :

قلت لما استقال مولاى زرعى ... ورأى غلة الطعام قليلة
دمنى لانتجاعى لحرث كلت ... فهى اليوم دمنة وكليلة

وراعك بتعمقه – رغم الابداع الفنى – فى الملاحظة والوصف والتحليل لارق خطرات النفس وادق خلجات القلب واذا كتب فى التصوف اثار العاطفة والوجدان وحرك اوتار الكيان واهاج الخفقان، واذا كتب فى الفلسفة اسلس قياد العقل لمنطق بيانه وسحر لسانه ودامغ حجته وناصع برهانه وهو فى ذلك كله جزل وديع يرسل النبرات فى خفة ورشاقة ويتحرى الوضوح ويلتمس ابلغ السبل نفوذا الى الفكر المجرد وانجعها على انه قلما تنتظم ظواهر الايجاز والجزالة والجلاء فى اسلوب ولكنها توفرت كلها عند ابن الخطيب الذى تجرد اسلوبه من ذلك الجفاف الملحوظ غالبا فى البحوث الفلسفية والتحقيقات العلمية .

وليس ذلك ببدع من رجل غلب عليه الطابع الادبى ورقت شاعريته وشعوره فسكبها زلالا رقراقا فى كل شىء حتى فى المناظرة والجدل وابدع ما يثير الاعجاب فى عبقرية ابن الخطيب هى تلك السعة النادرة والغزارة الفياضة التى تجعله يحيط بالموضوع من جميع جوانبه ويحدق من كامل اطرافه ويلم منه ما تناثر وتبعثر دون ان يحيد عما تحراه من ايجاز والتزمه من دقة ووضوح .

وقد صدق ابن الاحمر عند ما حلى ابن الخطيب «باديب الدنيا ومفرد العلم والثنيا وكاتب الارض الى يوم العرض»

ولقلما يعمد لسان الدين الى تلك الخطابيات التى تغلب على اسلوب الغزالى مثلا الذى يكثر فى اشاداته وتوجيهاته نحو الخير والصلاح من سرد الآيات والاحاديث والمأثور من القول وسبك الحكايات ما تخيل منها وما وقع ومع ذلك فابن الخطيب ينهل كسلفه من فيض الخيال ويعل من نبع الفن ولعل هذا هو سر تلك الجاذبية التى نالت منها مؤلفات الرجلين اوفر حظ واكمل نصيب .

وقد اتفق الرجلان فى جانب من اسلوبهما وظاهرة فى منهجى بحثهما فتحرى كلاهما الدقة والجلاء فى استعراض حجج الخصم قبل التعقيب عليها واستقصيا شرح الآراء لدى نقدها بطريقة تجعلها فى متناول الجمهور فاتهم الغزالى بسبب هذا الاستقصاء الكاشف بمشايعة الفلاسفة والفرق الضالة كالباطنية كما اتهم ابن الخطيب بالزيغ فى عقيدته فكانت هذه التهمة المنكرة سببا فى احراق كتب الاول والايداء بحياة الثانى .

فكثيرا ما يسرد ابن الخطيب تأولات الفلاسفة القدماء او شطحات بعض غلاة الصوفية دون ان يكبد نفسه عناء نقدها فيقع القارىء فى حيرة من

حقيقة موقف ابن الخطيب لا سيما اذا لم يتبين هذا الموقف من بين السطور وسياق الكلام غير انه قد يعود في الصفحات التالية الى الموضوع فيرسل اشارة او تلميحة يدرك القارىء منها شيئا عن موقف ابن الخطيب وربما عثر القارىء ـ في ثنايا مؤلفات الرجل التي عرجت على الموضوع ـ على طائفة اخرى من التلميحات قد تسفر عن آرائه الحقيقية اذا جمعت عناصرها المبعثرة وقوبلت مقابلة نقدية مثال ذلك قضية العقل ومكانته بالنسبة للشرع في تقدير القيم الاخلاقية، ففي بعض كلام ابن الخطيب نوع تناقض في الظاهر لا يلبث ان يتلاشى اذا جمعت اطراف الموضوع المتناثرة في كتب خطيبية اخرى كما سنرى فيما بعد، وقد وقع شيء من هذا للغزالي في كتابه «مقاصد الفلاسفة» حيث عرض آراء الفلاسفة عرضا موضوعيا ـ كما يقولون ـ دون تعليق ولا انتقاد حتى ظن بعض المسيحيين المولعين بالفلسفة في القرون الوسطى، ان الغزالي من انصار هذه الفلسفة ولكنه ما لبث ان عاد الى تفنيدها في كتابه تهافت الفلاسفة، فاتضح ما كان قد انبهم وظهر ان الغزالي صارم في تفكيره حتى لبعض الاسلاميين من هؤلاء الفلاسفة كالفارابي وابن سينا رغم ما قد نجده في كثير من مصنفاتهما من آيات الاستقامة والايمان، واذا كان الغزالي وابن الخطيب قد اتفقا في اتجاهات مختلفة خلال دراستهما الفلسفية وابحاثهما الاخلاقية فانهما قد اختلفا اختلافا بينا في موقفهما ازاء ابن سينا اذ بقدر ما يسفه ابو حامد بل يكفر الشيخ الرئيس بقدر ما يجله لسان الدين .

ولله في مواقف عباده شؤون .

حب الوطن

حب الوطن عاطفة شريفة تغلغلت في احشاء الناس وفضيلة تركزت في طباعهم وقد نال ابن الخطيب منها علاوة على القدر المشترك بين البشرية حظ الموتور الذي زحزح عن مسقط رأسه ومسرح صباه ومعهد انسه ومألوف منتداه وابعد قهرا عن مربع الاباء والاجداد ومنابت الخلان والانداد ولعل هذا الحظ الزائد ليس له من مجالي الزيادة الا سنوح فرصة الاستعلان والا فقد كان كمينا في تضاعيف الجنان .

قال ابن الخطيب في مقامة يخاطب فيها الولي الصالح ابا العباس السبتي .

«مزق شملي وفرق بيني وبين اهلي وتعدى علي وصرفت وجوه المكايد الي حتى اخرجت من وطني وبلدي ومالي وولدي ومحل جهادي وحقي الذي صار لي طوعا عن آبائي واجدادي، وأنا قرعت باب الله بتأميلك فالتمس لي قبوله بقبولك وردني الى وطني عن افضل حال»

ولكن كيف كان ابن الخطيب ينظر الى هذا الحب ؟ هل هو في نظره نوع من حب الذات انصرف الى مراتع ترعرعت فيها هذه الذات منذ نعومة الاظفار ؟ ام هو نوع من المناسبة تناسقت جناساتها الروحية وانتظمت اسلاكها منذ كان قلب الطفولة البريئة لا يزال على نقشه الفطري ؟ قد يكون هذان العنصران اسهما معا في تغذية هذه العاطفة وقد يكون لاحد العاملين انافة على صاحبه في بعث هذه الروح فيكون لعامل الاغتراب «يد في تقويتها غير ان الذي يهمنا هو ان ابن الخطيب كان متشبعا بهذه الروح التي وصمه بالتجرد عنها المستشرق «بونس بواك» بدعوى هجره المزعوم لوطنه وايثاره الموهوم لمملكة بني مرين على ربوع الاندلس الرطيب ولن اكلف نفسي عناء تفنيد هذه الدعوى ما دام (دو الديكوا) قد تكفل بهذا الامر حيث كتب في مقال له «بالوثائق البربرية» القسم الاول المجلد الثاني سنة 1917 ما معناه وانا اريد هنا ان اجرد ابن الخطيب مما وصمه به بونس بواك Pons Boigues من انه سعى في خراب وطنه، ثم ذكر ان من الغلط استعمال لفظة وطن في حق المسلمين واطلاقها على المدلول الجاري عند الاوربيين اذ ديار الاسلام كلها للمسلمين وطن فلا ينبغي والحالة هذه اعتبار تنقل ابن الخطيب من خدمة مملكة اسلامية الى مملكة اسلامية اخرى جناية على الوطن ثم فند ما رمى به ابن الخطيب من نكران الجميل مستندا الى احداث ووقائع تشهد بما طبع عليه لسان الدين من جميل الاعتراف وطيب الامتنان وحسن العهد .

على ان ابن الخطيب لم يهجر وطنه طيعا مختارا، وانما اكرهه على ذلك توارد الدسائس وتوالي الوشايات وكيف يتهم رجل بنكران حق الوطن وشعره ونثره يفيضان بالحنين الصادق الى هذا الوطن.

اما قرأت قوله :

بلاد عهدتنا في قرارتها الصبا ... يقل لذاك العهد ان يألف العهدا

وقوله :

وطن قد قضيت فيه شبابا ... لم تدنس منها البرود مذمة

بنت عنه والنفس من اجل من قد ... خلفته خلاله مغتمة

ولعل ذلك الهجران القاهر هو الذى ضاعف فى نفس ابن الخطيب عاطفة النزوع الى الزهد والخلوة بعد اليأس من احلام الحياة فقد قال بعد البيتين الاخيرين :

كان حلما فويح من امل الدهر واعماه جهله واصمه
تامل العيش بعد ما خلق الجسم وبنيانه عسير المرمة

وكيفما كان الامر فان تغرب ابن الخطيب لم يكن عن طيب خاطر وقد كان له اثر قوى فى حياته الخلقية ولو لم يكن من نتائجه الا تمحيض وجهة الرجل نحو الحياة الصوفية لكفى.

ولعل اصل هذه التهمة هى الرسالة التى وجهها ابن خاتمة لابن الخطيب وهى مثبتة فى ازهار الرياض (ج 1 ص 625) حيث انبه على هجرانه الاندلس بقوله «متى توازن الاندلس بالمغرب او تعوض عنها الا بمكة او يثرب ؟ ما تحت اديمها اشلاء اولياء وعباد وما فوقه مرابط جهاد ومعاقد الوية فى سبيل الله ومضارب اوتاد»

ولكن المتهمين اهملوا رد ابن الخطيب على هذه المؤاخذة حيث قال : «واما تفضيله هذا الوطن (اى الاندلس) على غيره ليمن طيره وعموم خيره وبركة جهاده وعمران رباه ووهاده باشلاء عباده وزهاده حتى لا يفضله الا احد الحرمين فحق برىء من المين .

ولابن الخطيب فى توديع ابنه لما انصرف عنه الى فاس :

بان يوم الخميس قرة عينى حسبى الله اى موقف بين
وطن نازح وشمل شتيت كيف يبقى معذب بين ذين ؟

غير اننا نجد الى جانب هذا التعلق نوع ازمة نفسانية كانت تعترى ابن الخطيب من جراء تالب اعدائه عليه فى الاندلس فيظلم عليه جو العيش وتدلهم فى عينه الحياة ويتوق الى الفرار من مغانى الاندلس لا بغضا ولا كراهية ولا مللا ولكن عزوفا عن وسوسة بعض اهلها الذين كان شغلهم الشاغل ايغار القلوب على لسان الدين وقد ورد فى رسالة وجهها ابن الخطيب لاحد وزراء ملوك بنى مرين عبارة تشعر بهذه الازمة «فانى كما يعلم الوزير منقطع الاسباب مستوحش من الجهة الاندلسية»

المعري وابن الخطيب

كلاهما مفخرة للادب وخزانة فياضة بفنون من العلم وضروب من الادراك قلما ظفر بها غيرهما دقة في النظر الى الحياة وصدق ومرارة في نقد الاحياء وعمق في تحليل الداء وتشخيص الدواء .

غمرتهما شاعرية مهذبة وجلال هادىء ورديع نقاء في المبنى وجمال في المعنى وانتجاع للقيم الحسنى

كلاهما اصدر عن خيال فياض وفكر ثاقب

كلاهما فيلسوف ولكن فلسفة المعرى عريقة اصالة في التشاؤم وفلسفة لسان الدين ـ رغم نقده اللاذع وغمراته العابرة ـ موغلة في الرجاء

نعم بقدر ما كان ابن الخطيب مستبشرا متفائلا تذكيه نفحة صوفية انارت في ناظريه صفحة الوجود واشاعت في قلبه برد اليقين ـ بقدر ما كان ابو العلاء موغلا في الارتماض والتشاؤم تطوح به نزعته الصوفية الفلسفية الى فيافي توغل في دياجيرها فأظلم في نفسه الوجود بعد ان احلكته الطبيعة في عينيه وشاع في قلبه شك خانق وشعور بالانهيار والياس من هذا العالم القاتم المثقل بدواعي الريب والظنون .

وما لبث نظرهما الخلقي ان تأثر بهذه الوجهة المتنافرة فطفح فؤاد الاول املا في الناس واستيناسا بهم وثقة بمزاياهم واحس بروح الحرية ينعش روحه وتسيم الاختيار يفسح له ربع الوجود .

وانفمر خلد الثاني خيبة وارتيابا فرأى السعادة في الانعزال والشقاء في الاتصال ورأى الشر غالبا والخداع مناصبا والصدق ناضبا فشعر بالقهر وثقل على نفسه عبء القدر فهامت منه البصيرة وتاه البصر .

هو الشر قد عم في العالمين	أهل الوجود وأهل الذرى
وقد بلونا العيش اطواره	فما وجدنا فيه غير الشقاء
تهوى الثريا ويلين الصفا	من قبل ان يوجد اهل الصفاء
قد فقد الصدق ومات الهوى	واستحسن الغدر وقل الوفاء
فانفرد ما استطعت فالقائل الصـ	ـادق يضحى ثقلا على الجلساء
ان مازت الناس اخلاق يعاش بها	فانهم عند سوء الطبع اسواء
فهم الناس كالجهول وما يظـ	ـفر الا بالحسرة والفهماء
اخلاق سكان دنيانا معذبة	وان اتتك بما تستعذب العذب
وزهدني في الخلق معرفتي بهم	وعلمي بأن العالمين هباء
بعدي من الناس برء من سقامهم	وقربهم للحجى والدين ادواء

الدنيا ظـلام وحق لها ان تكون ظلاما لان لحظ المعرى المطبق لا يتبين منها الا حلوكة مدلهمة تصاعد بخارها من بصره الى بصيرته فاحلولكت فى نفسه مباهج الوجود .

الدنيا طعان ورياء ونفاق وعداء

قـد حجـب الـنـور والضـيـاء وانـمـا ديـنـنـا ريـاء
انس على الارض تدمى هامها احسن منهـا اذا دميـت للوحـش النساء
وعـرانـا علـى الحطـام ضـراب وطـعـان فـى بـاطـل ورمـاء
ومـا زالـت الدنيا باصناف السن تبيـن عـن غيـر الجميـل وتعرب
والـدهـر يـشـتـف اخـلاءه كـانـمـا ذلـك منـه اشتـفـاء

وكانى بالمعرى شعر بغلو فى حملته على الدنيا فكر على اهلها :

نقمت على الدنيـا والاذنب سلفت اليـك فانـت الظـالـم المتكذب
وحبهـا فتـاة هـل عليهـا جناية بمـن هـو صـب فى هواها معذب
فمـا اذنـب الدهر الذى انت لائم ولكـن بنـو حواء جاروا واذنبـوا

ولعـل ابا العلاء ما اوصى بالزهد فى الدنيا الا فرارا من ذويها فليس زهده فيها زهـدا صوفيـا يعتـزل ذاتها وانما هو زهد انفجر عـن يأس من النـاس .

نعم لقد مل ابو العلاء الناس ونفاق الناس

عيبـونـى حيـا ثـم قـام لهم مثـن وقـد عيبـونـى ان ذا عجب
رويـدك قـد غـررت وانـت حـر بصـاحـب حيلة يعـظ النساء
يحـرم فيـكـم الصـهبـا صبحا ويشـربهـا علـى عمـد مسـاء
تشـاجب عـمـرو اذ تناجب خالـد بعـدوى فمـا اعدتنـى الثـؤبـاء
اذا رام كيـدا فـى الصلاة مقيمها فتـاركهـا عمـدا الـى الله اقرب

وما بالك بأناس تختصم منهم حتى الطباع والغرائز

وارى الاربـع الـغـرائـز فينـا وهـى فـى جثـة الفتـى خصماء
ان تـوافقـن صـح اولا فمـا ينـفـك عنهـا الامـراض والاغمـاء
غلـب المين منـذ كان على الخلـق ومـاتـت بغيظـهـا الحكمـاء

وكيف يستساغ العيش فى مربع يكون مقياس الخير فيه هو الغنا والجاه

اذا قبل الانسان فى الدهر صدقت احاديثه عن نفسه وهو كاذب

ضاق المعرى بهذه الحياة التى غار فيها الحياء وانحى بالاقداع على الوالد الذي تسبب فى وجود الولد

على الولد يجنى والد ولو انهم ولاة على امصارهم خطباء
تطلق رازق الاحياء طرا لقد وحت المروءة والحياء

فما كان من ابى العلاء وقد خنقته الضائقة واحرجته تمويهات الاجتماع الا ان استبطأ الموت واستعجل المنون

وشف بقاء صرت من سوء فعله أهش على الموت الزؤام واطرب
ولى مورد بإناء المنون ولكن ميقاته ما اتى
حياة عناء وموت عنا فليت بعيد الحمام دنا
يد صفرت ولهاة ذوت ونفس تمنت وطرف رنا

ولكن المعرى لم يستطع الخلاص من اتون الحياة فشعر بقهر يسيره وجبر يحيره فانقلب جبريا خنوعا وانصاع لحكم القدر مرتاعا من صروفه هلوعا .

جرت زمنا وتسكن بعد حين واقضية المهيمن لا تجارى
قضى الله فينا بالذى هو كائن فتم وضاعت حكمة الحكماء
وهل يابق الانسان من ملك ربه فيخرج من ارض له وسماء
وما كنت فى ايام عيشك منصفا ولكن معنى فى حبالك مجديا
اذا نزل المقدار لم يكن للقطا نهوض ولا للمخدرات اباء
ارى فلكا ما زال بالخلق دائرا له خبر عنا يضان ويخبأ
حكم جرى للمليك فينا ونحن فى الاصل اغبياء
أقضية لا تزال واردة تحار فى كونها الالباء

ابن الخطيب الفيلسوف

اذا اعتبرنا ان من دعائم الفلسفة نفوذ البصيرة وصدق النظر فى حقائق الحياة والاحياء ظاهرا وباطنا اجتماعيا ونفسانيا والدقة فى استكناه اسرار

الكون وماجريات الوجود وعلل الخلق ودقائق الاجتماع واوضاع السياسة ونزعات النفوس وتموج الطباع ـ قلنا بأن ابن الخطيب عل من ذلك ونهل بالقدح الطافح، كان فيلسوفا من امثل ما انجبته الارحام العربية فقد جمع الى روح الابتكار في المباني القويمة والمعاني السليمة والفكر السديدة والاساليب الجذابة ـ اقتدارا على تحليل خلجات الوجدان مهما دقت وتشريح نزوات النفوس مهما لطفت ورقت وتعليل قواعد الاجتماع وقوانين الحياة مهما استعصت وكان اذا لاحظ اصاب الصميم واذا نظر استكنه السويداء وكانت ملكة التجريد متناهية المتانة في قواه العقلية ومداركه الفكرية، فكان يعمد في اوصافه وتحليلاته الى الحقائق الثابتة في الطباع البشرية والاوضاع الانسانية والنظم الاجتماعية فيضعها على المشرحة ويستجلى خفاياها ليخرج لنا صورا خالدة عن سر اختلاف الاتجاهات وتنوع النزعات في بني الانسان وانت اذا قرأت صفحة وصف فيها ابن الخطيب طبقة من طبقات الشعب في اهداف غدواتها وروحاتها واسباب حركاتها وسكناتها وغايات تفكيرها ونوع وجهة هذا التفكير وصبغة مجموع مظاهر الحياة ومجالى العيش وجدت ان هذا الوصف الذى ركزه لسان الدين منذ قرون متطاولة خلت على العناصر الدائبة والماهيات الخالدة في الانسانية لا يزال يتفق وما نلحظه الى الآن في خصائص هذه الموصوفات على اختلافها من مدن وقرى واندية ومجتمعات وهنالك ندرك ان الرجل كان من الفلاسفة المبرزين والخبراء المضطلعين في علم النفس وعلم الاجتماع .

واذا قرأت ما كتبه في السياسة وتموجاتها والممالك وتداولها والامراء وما يحاك حولهم من دسائس ومؤامرات ومختلف الخلايا البشرية وغرائب مطوياتها ـ ألفيت نفسك امام دراسات نقدية تحليلية لا تصدر عن مطلق كاتب ومجرد اديب وانما تنبعث من نفس دراكة نفحتها فلسفة طبيعية فطرية بروحها المنطقى السليقى الرصين وكيف تنتظم هذه الحقائق السرمدية التى تمس مختلف ميادين السياسة والاجتماع والاقتصاد والعواطف النفسية ـ في فكر غير فكر حكيم؟ بل كيف تتناسق نبراتها في قلم غير قلم فيلسوف؟

لقد جمع ابن الخطيب خصائص لو توفرت احداها في رجل لاعتبر بحق من الفلاسفة المبرزين فمن نقد دقيق للمجتمعات البشرية في اطوار التاريخ يستلزم سعة عارضة وقوة بديهة الى محاولة موفقة في التنسيق بين التعاليم المستخلصة من تجارب الحياة وبين مقتضيات الفضيلة كما يراها العقل والشرع والوجدان الى سعى جدى في وضع اسس المدينة الفاضلة على نهج

يرتضيه القرآن ويستسيغه الطبع ويطرب له الوجـدان ويضمـن السعادتين للانســان .

وقد توفر ابن الخطيب على دراسة الفلسفة القديمة كما يتبين ذلك مما يورده من تحليلات لبعض مشاكلها الغامضة وهو لا يقتصر على الدراسة الموضـوعيـة السطحيـة وانمـا ينقد ويزول ويوجه فى اسلوب يجمع بين البساطة والوضوح والدقـة والفن ويشهد بضلاعة الرجل وقوة ملكته، وقد تعـرض لمختلـف المـدارس الفلسفية والاشراقية والصوفية شرقا واندلسا بالنقد المستقرىء واصفا خصائص كل منها والطابع العام الغالب على انظارها وقد امتاز علاوة على ذلك بنظرات طريفة اسلوبا وروحا حول المعرفة والحب مازجا بين الطريقة العقلية التـى هى طريق الحكماء والمنهج الوجدانى الذى هو منهج الصوفية والمهيع الشعرى الـذى هـو ميسم عباقرة الادب وكيف لا وابن الخطيب فيلسوف صوفى شاعر أديب ؟
